التجديد
في فن الطرب

رحمة الله على عبده ، والشيخ يوسف المنيلاوي ، والشيخ سلامه حجازي ، وزملائهم من أئمة الطرب القديم الذي كان شائعاً في بلاد الأغريق ، واستمبول وتوابعها وبغداد ، وحلب ، والشام ، ومصر ، وإيران ، وغيرها من البلاد الشرقية التي نبغت في فن الطرب نبوغاً لا نظير له . غفر الله لأولئك الأئمة العظام فقد اجترموا جريمة لا تغتفر إذ دوزنوا أوتار أعصابنا الموسيقية دوزاناً فنياً بديعاً . ولكنه بغير أسف لا يتفق مع الموسيقى الأفرنجية بتاتاً ، ولا يمكن أذواقنا أن تستسيغها . وما حسبوا حساب ان المتطفلين على الفن سيتشحلون الألحان الأفرنجية ويمسخونها ويدّعون أن مسخها تجديد في الفن . وقالوا هذا هو الطرب الجديد فخذوه وتمتعوا به ، ونحن الذين ألفنا ذلك الطرب القديم تنبو أسماعنا عن هذا الجديد ، وتقزّ أنفسنا منه ، وترتجّ أعصابنا ارتجاجات تزلزل مراكز الدماغ

يكاد ذلك الفن القديم الذي عاش لا أقل من ١٥ قرناً يتلاشى ، ولا سيما في مصر ، ولم يبق عندنا هنا من يمثله ويحسن عزفه وغناءه سوى بضعة أشخاص معدودين ، وصرنا نخاف أن يُحرَمَهُ حفلاتُنا حرماناً كلياً ولا يعرفون عنه إلاّ خبره وبعض أعوفجات منه محفوظة في الاسطوانات (الأقراص) من أدوار ، وموشحات ، وبشارف . بل صرنا نخاف أن هذه تفنى من الوجود أيضاً لأننا سألنا عن بعضها عند تجارها فقالوا لنا « البقية في حياتك » . واذا ابتغيناها في صحف العلامات الأفرنجية لا يمكن أن تعبر عن ألحاننا ولا سيما الآن بين الطرين بوناً عظيماً كما سنفسره فيما بعد .

لقد طغت الموسيقى الأجنبية علينا حتى تغلغلت في موسيقانا ، وجعل أهل الفن عندنا يمارسونها بدعوى التجديد ، وما هو إلاّ اقتباس الفن الأفرنجي ومحاولة تطبيق الكلام العربي عليه . وقد قيل لنا والمهدة على الراوي ان بعض ذوي الفن الأفرنسيس سيقاضون

لدى حاكمنا الأهلية أحد الفنانين ، وهو مصري ، لأنه افتعل أحاديثهم بتعديله عيل فيه وادعاءه لنفسه ، فاذا هي ممسوخة مسخاً شنيعاً .

لا نفهم ما ذا يراد بهذا التجديد . ونحن نفهم أن المراد بالتجديد هو ابتكار أوزان جديدة في « الثلث والضم » في اصطلاح الموسيقيين . أو ابتكار أنغام طريفة ، لا اقتباس أنغام وألحان أجنبية ومسخها . ان موسيقانا تتجدد بطبيعة الحال من تلقاء نفسها مع الزمان بما يضاف إليها من الأغاني والموشحات والأناشيد وسائر القطع الموسيقية الجديدة من تقاسيم وموشحات وأدوار وبشارف ونحو ذلك . ولكن مهما أضيف إليها من هذه فقد لا يمكن أن يضاف إليها نغمات غير ما فيها لأن ما فيها الآن لا يقل عن ٣٠ نغماً . وقد لا تحتمل مزيداً على الرغم من أن فيها من الدرجات وكسور الدرجات (النصف والربع والثمن فضلاً عن الدرجة الكاملة) ما يسهل لها أن تحتمل كل مزيد .

نقصد بالأنغام أو النغمات الفنون التي تتأتى من استعمال كسور الدرجات كالسيكاه والرصد والحجاز كار والنهوند الخ .

فمن يروم التجديد فليبتدع فيها أنغاماً جديدة غير هذه وأخواتها مما هو معروف ، لا أن يسرق من الألحان الافرنجية لحناً ويمسخه . ومهما برع في اقتباس الألحان الافرنجية فلا يستطيع أن يأتي بأفضل وأطرب من ألحاننا العربية ، لأن السلم الموسيقية الافرنجية ليس فيها الا الدرجة الكاملة ونصف الدرجة . ولا تستطيع أن تركب من حرفين (درجتين) ما تستطيع أن تركبه من أربعة أحرف (٤ كسور الدرجات) ، من حرفي م د لا تستطيع أن تركب أكثر من « ندّ » و « دمّ » و « دمدّ » و « دن » ولكنك من م د ج ص تستطيع ان تركب مئات الكلمات . هكذا الأمر في الأنغام .

لما وافانا عصر الاذاعة اللاسلكية اعتقدنا ان الراديو سيكون داعياً لتنافس الملحنين في التلحين على أساس طربنا الذي ولدنا فيه ورضعناه مع لبننا . وكنا نتوقع ان يتبارى الملحنون عندنا في وضع تقسيمات جديدة وتوشيحات طريفة وأغانٍ مستطرفة على مختلف الأنغام من الرصد الى الاصفهان الى النهوند الخ . وان يبتدعوا لنا بشارف جديدة لتضارع البشارف التركية ، أو أجمل من بشرف رصد لعاصم بك وبشرف عشاق لعثمان بك وأوشط

هربان ، ويشرف البياتي لاسحاق بك . ما سمعنا بشرفاً جديداً إلا بشرف رصد للنابغة الأستاذ صاحب الشرف ، بشرفاً رائقاً رقيقاً كأنه حديث الملوك، هو حديث طرب من أحاديث سامي الطيفية المزوجة أحياناً بالمزاح . ويقال إن بشارف الأستاذ النابغة توفيق صباغ التي يدرسونها الآن في المعهد الموسيقي الملكي تضارع البشارف التركية .

لم نسمع في الاذاعة تانغاً في ألحاننا، بل تانغاً في مسخ الألحان الأفرنجية وتعريبها ، فأصبحنا كأننا نرى ريش طاووس في ذيل حمش . فذهب جمال الطاووس في مكروج هذا الحمار ، وأصبحنا ونحن نسمع هذه الألحان الممسوخة كأننا نسمع أنكر الأصوات ...

أجل لم نسمع في الاذاعة تانغاً في ألحاننا الشرقية المصرية على الخصوص وبدعاً فيها كما كنا ننتظر . بل صرنا نسمع « نشازاً » كما يسميه المطربون وأهل الطرب . لم نسمع الانشاد التي كانت تنشدها كبيرة المطربات ونقيبة المطربين من « مالي فتلت ... » و « حقك أنت المنى والطلب » و « غيري على السلوان قادر » . و « فتكات لحظك أم سيوف أبيك » . وحلت « أخاف يكون حبك لي شفقة عليّ » محل « أراك عصيّ الدمع » وبين النظمين واللحنين أبعد مما بين الباسفيك والاتلانتيك » . وهل في الاناشيد أجل من « أراك عصي الدمع » هذه نظماً ومعنىً ومغنىً ؟

جزاكم الله بصقراً يا بشر . أبدلتم نقيق الضفادع بطرب البلابل .

تالله هل فقدتم الذوق أم ركبتكم جنة التجارة الموسيقية . فصرتم تتسابقون الى بورصة الاذاعة بين متطفلين ومسامرة ومستغنين ومحاسيب

هذه هي شرعة الراديو الدعوقراطية ان يتولى الأمر مسامرة الفن لا أبناؤه فيفرضون عليك ان تسمع هذا وذاك، لا هاتيك ولا تلك، فتسمع الطبل والزمر ونحوهما . ثم يدّعون ان الاذاعة في الراديو ترقي الذوق الموسيقي في الجمهور كما هو مفروض وهو منتظر . ولكن ليس شيء من هذا .

لم نعد نسمع في الراديو إلا كل من فتنه الغرور، فظن ان الله وهبه صوتاً جميلاً لا نظير له ، واعتقد ان الطرب إنما هو في الهيق ، وجهل ان الطرب فن ، وان التلحين أسمى درجات الفن وانه أعظم قيمة من الصوت . وأنا حين أسمع دور « يلمي قوامك يعجبني » من سيد درويش نفسه (وصوته دون الاعتيادي جمالاً) أصفق له تصفيقاً حاداً . واذا سمعت أم كلثوم تنشد (غيري على السلوان قادر) أصفق لأبي العلا الذي لحن القصيدة لا لها . أما الذين يظنون ان الله وهبهم الصوت الجميل فصاروا يرتجلون ألحان القصائد ارتجالاً ، لظنهم ان الابداع في الصوت، ولا أهمية للحن . ولذلك صار كل من

تبلغه الواسطة مجاناً فيرسلها الى غرفة الاذاعة ويخجل لتبدأ بحسب الهام غروره.

صمت مرة في الاذاعة « سويعة » يشدو الثالث على يدها ما لم تناله يدي في نصف ساعة يرده كل بيت من ابيات الاربعة الاول مراراً . ولكن (أحارك الله) على وتيرة واحدة . أنشد كل بيت من هذه الاربعة خمس مرات أو ستاً على الاقل مع غير ان يتغير في اللحن شيئاً ، فكان انشاد البيت الاخير كانشاد البيت الاول . ولو كان في مناله يدي هو ومن أجاز له أن يشدنا لنفسهما . عفواً وغدراً .

كذا ابتدأت السيدة أم كلثوم في أول عهدها تنشد « صحت بارسال الدموع شواجري » فكانت تنشد كل بيت كالذي سبقه من غير تفنن أو تلحين . فقلنا لها في مقال « سبحان من أبدع وسوّى يا أم كلثوم . الصوت لم يبدع الله أجمل منه . ولكن التلحين محذور . يا سيدة الطرب ، ليس الطرب صوتاً فقط بل هو فن أولاً . فتعلمي ما لحنه أبو العلا والقباني وسيد درويش وداود حسني ، ثم اطلعي على المنبر وقولي الله اكبر » . ففعلت ، ثم اسمعتنا من انشائد الملحنة ما يليق أن تنشده مع الملائكة حول عرش الله تعالى . ثم ما لبثنا أن صرنا نسمع ألحان التجديد . وأغفلت كل ذلك القديم فنقمنا على كل من لحن جديداً وغنى جديداً . أليس هؤلاء المغنين والملحنين ذوق .

لحن أحدهم رواية « عائدة » العربية ، فجبها الجمهور . فاضطرت ادارة الاوبرا أن تكلف الاستاذ زكريا أحمد أن يلحنها على المنهاج العربي . فنجحت .

يقولون لك إن هذا ما يريده عامة الشعب . تبّاً لكم ! أتتعلم الذوق من عامة الشعب أم أن المراد بالاذاعة أن ترقي ذوق الشعب — كذبوا لا يريد هذا الا المتطفلون الذين رأوا انه صار للغناء ثمن بفضل اللاسلكي . فصاروا يتطفلون ويلحنون ويغنون وهم بلا ذوق موسيقي .

الشعب ابن طرب ولكنه ليس ابن فن . فما تقدمه له يستسيغه بقدر . وأخيراً تدوزنت أوتار أعصابه السمعية على سوخ طرب التجديد هذا . فالذين نشأوا على هذا الطرب ظنوا أن هذا هو المثل الأعلى في الطرب . ولو سمعوا القديم لتغير رأيهم . والذين كانوا يسمعون القديم لمروا الجديد ومن أدخله على عالم الطرب .

لا يستحسن مما تغنيه أم كلثوم إلا ما كان فيه شيء من القديم .

نسأل المجددين هل يمكنهم أن يلحنوا دوراً أو موشحاً ؟ إذن فليسوا أبناء فن وما هم موسيقيون .

عيدنا في موسيقانا الشرقية أو بالاحرى العربية ثروة طرب لا تضاهيها ثروة الامم

الأخرى . ولكن بكل أسف انها تحتضر الآن . تكاد تذهب وتدفن غير مأسوف عليها لأنه ليس في الجيل الحاضر من سمعها وعرفها حتى يترحم عليها .

قال لنا بعض أساطين الطرب القديم أن في عالم الموسيقى العربي فصل عزف وغناء يشغل نحو ٣ ساعات يسمى « فصل العطاش » ، يشمل جملة من نخبة التواشيح والمقطوعات الفنية التي لا تضاهى . وقد عرفنا الآن من يعزفونها ويغنونها ثلاثة : هم الأساتذة الكبار سامي الشوّا ، وأخوه فاضل ، وجميل عزت . ولا ندري إن كان يوجد غيرهم هنا في مصر . ولكن يقال إن في حلب الشهباء بعضاً آخرين يعزفون ويغنون هذا الفصل . فاذا لم يتعلمه بعض موسيقي مصر وغيرها ، ذهب بذهاب ذلك البعض ، أطال الله أعمارهم . حبذا لو كان عازفو هذا الفصل يحيون ليلة طرب في الأوبرا أو في أي مسرح آخر كبير ويعزفونه ويغنونه ، فكان نجم الطرب يدرك كون قيمة التجديد الى جنب قيمة هذا القديم المنبوذ .

صرنا نخاف أن يمضي هذا الجيل ولا يبقى للجيل القادم الا بعض الطرب الجديد وهو ممسوخات الأجنبي والقديم ، فيصبح الجيل الجديد وليس عنده موسيقى يمكنه أن يفتخر بها .

رأينا الاذاعة محتكرة فلا يصل اليها إلا أشخاص لهم من أصدقائهم ومن وسائلهم غير المحمودة أحياناً سندات يتوسلون بها . فلا نسمع إلا القليل من أهل الفن ، والكثير من الطفيليين . وأما معظم أهل الفن التابعين فلا يلتفت اليهم . وقد روى لنا أحد هؤلاء النوابغ أنه دعي للاذاعة وطلب اليه أن يعزف ويغني للتجربة والامتحان ، مع أنه معروف جيداً ، وكان يسمعه في حفلات خاصة أمراء ووزراء وكبراء ، وكانت الاذاعة تذيع بعض اسطواناته ، فمن قلة الذوق أن يستدعى ليُمتَحن . ولكن مجلس الاذاعة الأعلى رام ان يطرب ساعة ، وبعض الساعة ، حتى ضجر الرجل من امتحانهم السمج فسكت . ثم قيل له . غداً ان شاء الله يصلك خطاب لكي تأتي وتمضي العقد . وقد مرّ الى الآن ١٧ سنة على هذا الوعد ولم ينجز العقد .

وقد سئل يوماً أحد رجال الاذاعة : لماذا لا تستدعون فلاناً لكي يذيع شيئاً من تحف الفن . فقال ان « فلاناً غير محتاج » . فكأن الاذاعة تكية للمحتاجين ، لا مصدر اذاعة للجمهور المطلوب الطرب المحبوب .

وهكذا يبقى الشعب محروماً فطاحل الفن ، لأن لا رزق إلاّ للمحتاجين . والحكومة تتقاضى في العام ٣ أرباع المليون جنيه ضرائب على آلات الراديو أفلا تكفي للمحتاجين ولأهل الاذاعة .

ان مصلحة الاذاعة عندنا مريضة تحتاج الى علاج .